خواطر سياسية وأدبية

للدكتور السيد محمد يوسف الهندي

إن للأقوام أمزجة وطباعاً كما أن للأفراد ميزات وخصائص. وقد عرفت حينما كنت بالهند أن مما يمتاز به الشعب المصري شدة التأثر بالحاضر، وانشغال القلب بالحال إلى حد تكييف الماضي به وعدم المبالاة بالمستقبل في بعض الأحيان، وربما اتخذت هذه الميزة مظهرين لها أعني قوة الانفجار والوثوب لمكافحة الشر المستفحل الماثل أمام العين، والركون إلى كل قليل أو كثير يبشر بالخير ولو إلى وقت ما.

كنت أعرف هذا على طريق الإجمال قبل ورودي مصر، ثم صادف أن ألقيت عصا التسيار بشط وادي النيل وقضيتها معروضة على مجلس الأمن، فحرصت على أن أتتبع الحوادث والتطورات مع آراء الرجال واتجاهات الأحزاب إزاءها، كما أقرأها على صفحات الجرائد وأشاهدها بعيني في الشوارع والأندية. فبينما أنا معجب كل الإعجاب بروح العداء للاستعمار الأجنبي السياسي (أخص بالذكر «السياسي» لأنني مع الأسف لم ألمس نفس تلك الروح في ميادين الاقتصاد والتقاليد الاجتماعية ومناهج الفكر) التي أيقنت أنها عمت الشعب كافة، إذا بسيل من الكلمات تتدفق على صفحات الجرائد داعية إلى خطة التقرب من الذئب نكاية بالأسد على أثر تأييد روسيا لمطلب مصر الخاص بالجلاء (دون اتحاد السودان معها)، فأسهب المحررون والكتاب في التنويه بصداقة روسيا وضرورة استيراد القمح منها وإنشاء العلاقات الاقتصادية والتجارية معها هي ومن تسايرها من الأمم مثل بولندا دون الأمم الانجلوسكسونية.

وقفت حائراً أمام هذا الموقف الفاجئ أفكر في نفسي في مدى جدوى مثل هذه الحماسة البالغة في الاعتراف بالجميل وتقديم الشكر عليه في ميدان السياسة الدولية في القرن العشرين، ولكن الأمر كان بالطبع موكولا إلى الأيام أن تثبت هل ستستقر سياسة العرب على هذا التحول الجديد أم لا؟

* * *

ثم حدث أن رأيت الشبان يثورون على الابن ويثأرون من أصله «البرازيلي»، وما لبثت ثائرتهم أن سكنت بمجرد محو اسم البرازيل من واجهة المحل مع بقاء جميع الأوضاع كما هي حسبما أعلم، كما أنهم يفتتنون بلصق لافتات «إنقاذ فلسطين» على أبواب المحلات الكبرى بشارع فؤاد وهم يعلمون حق العلم أن أصحابها اليهود هم في الحقيقة عماد الصهيونية في الشرقين الأدنى والأوسط، وأنهم إنما يستغلون الوطنية والجنسية المصرية بدون أن يشاركوا المصريين في آمالهم أو يواسوهم في آلامهم.

* * *

هذا، ومما زادني دهشة أن اتفق زعماء الأحزاب على ركوب سيارة واحدة تطوف بهم حول القنصليات لتأدية واجب الشكر لبعض الدول والشكاية إلى بعضها الآخر، وخطب ود (أو بالأحرى صوت) جميعها، وربما كانوا مصيبين في خطتهم هذه تظاهراً بإجماع رأيهم واتحاد كلمتهم، ولا سيما إذا هم عجزوا عن الظهور في مظهر أروع من ذلك، ولكن آلمني كثيراً البيان الذي أدلوا به أمام سفير فرنسا. ومن شاء فليراجع «الأهرام»

الدواني، وكتاب علم الهدى وأسرار الاهتدا، وكتاب اللمحات وكتاب المعارج، وكتاب حكمة الإشراق، وهو متن مشهور، شرحه الأكابر — كما قال في كشف الظنون — ومنهم قطب الدين الشيرازي، وكتاب المشارع والمطارحات. وهي كتب في المنطق والفلسفة والتصوف وله رسالة الغربة الغربية على مثال رسالة الطير لابن سينا، ورسالة حي بن يقظان له كذلك، وقد أشار فيها إلى حديث النفس على اصطلاح الحكماء.

ونختم هذه الترجمة بذكر ما وصفه به بعضهم من أنه كان زري الخلقة، دنس الثياب، وسخ البدن، لا يغسل له ثوبا ولا جسما ولا يداً، ولا يقص ظفراً ولا شعرا، وكان القمل يتناثر على وجهه، ويسعى على ثيابه، وكل من يراه يهرب منه. وعندي أن ذلك من وضع شانئيه، ولو كان كما وصفوا ما خفي صلاح الدين منه فتنة أن يتبعه أحد.

وبعد فأرجو أن أوفق إلى دراسة كتب هذا الرجل، فعساي أدرك سر قتله، لأني أرجح — إلى اليوم — أنه قتل مظلوما.

أحمد أحمد بدوي
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

قد لهجت ألسنتهم بذكر الآمال الجليلة التي كان العرب يعقدونها بفرنسا منذ بداية العصر الحديث ، ومن بينها الأمل الضائع (لا قدر الله له أن يتحقق) في مزاحمة فرنسا للاستعمار البريطاني في مصر !

أنا واثق بأن كلا من هؤلاء الزعماء الكرام لا يريد إلا الاستقلال التام لبلاده ، ولكن من الصعب أن يجد أحد أي مبرر ولو في أشد الأوقات حرجاً لتوجيه مثل هذه الدعوة إلى دولة قد ذاق العرب في مختلف الجهات ولا يزال إخوانهم في المغرب يذوقون الأمرين من جراء استعمارها ، وعلى الأقل فهي الثانية لقصر النظر في الأحوال والظروف الطارئة من يوم إلى يوم

* * *

لم يمض إلا وقت قليل حتى كشرت روسيا عن أنيابها ، فكانت من أشد الأنصار لتقسيم فلسطين ، وبلغ الحال أن بدأ ممثلو العرب وزعماؤهم يستغلون موقف روسيا المداني لتخويف أمريكا وبريطانيا بعد أن ضيعوا أنفاسهم وأتعبوا أقلامهم يستنجدون بصداقتها ضد تينك الدولتين منذ بضعة أشهر فقط .

وأخيراً لم يتمالك عرب فلسطين أن بادروا إلى رفع أعلام أمريكا على بيوتهم والهتاف بحياتها في الميادين والشوارع حينما خيل إليهم أن أمريكا نفضت يدها من مشروع التقسيم ، وما من شك أن مثل هذه الظاهرة لا يمكن أن تكون طبيعية ، إنما كانت مدبرة من الزعماء الذين تسرعوا في الاعتزاز بأنفسهم والتبشير لشعبهم والتسليم لأمريكا بما يتاجرون به من صداقة العرب .

لا أدري ماذا صنعوا بتلك الأعلام في اليوم التالي حينما صرح الرئيس ترومان بأن العرب أو زعماءهم جاوزوا الحزم في حل موقف أمريكا الجديد على التبرؤ من فكرة التقسيم . لا أدري ماذا صنعوا بتلك الأعلام ؟ هل نكست ومزقت وحرقت ، أو ادخرت لمناسبات أخرى في المستقبل ؟ وعلى كل حال فقد تبين أن السياسة القصيرة المدى التي نعيش بها من اليد إلى الفم ربما تؤدي إلى مزالق وفضائح ومآسي ، وإنما مرد ذلك إلى أن الزعامة لا تزال بأيدي رجال لا يتعدى فكرهم نطاق التحين للفرص ، فهم يتهيبون ويماطلون في كل خطوة إيجابية جريئة ترمى إلى قلب الأوضاع وخلق الظروف الموائمة لتصيبهم ، وذلك أول الوهن .

* * *

إنما سردت ما سردت من تأوراق لأهم ما وقع في العالم العربي السياسي أثناء البضعة أشهر الماضية لأخلص منها إلى الكلام عن أهم حادث في العالم الأدبي ، أعني ظهور « الفتنة الكبرى — عثمان بن عفان » من تصنيف الدكتور طه حسين . وقد اتفق لي أن قرأت انتقاد الأستاذ محمود محمد شاكر لهذا الكتاب قبل أن تتاح لي الفرصة لمطالعة الكتاب نفسه .

نعم ، قرأت انتقاد الأستاذ على صفحات « الرسالة » ، فعجبت لما بذل من جهد في سبيل إقامة الحجج والبراهين على عداء اليهود للمسلمين والإسلام . وما أغناه عن ذلك فإنها حقيقة أظهر من الشمس لكل ذي عينين نبه عليها القرآن وأكدها النبي وصدقتها التجارب المتكررة . إنما جبن المسلمون فتعمدوا نسيانها والإعراض عن الشهادة بها حينا ذهبت ريحهم فأصيبوا بمركب النقص في تفكيرهم حتى بدأوا يلتمسون الرقي والتقدم في محاكاة الأمم الغربية المتحكمة فيهم ، فأقاموا حياتهم السياسية الحديثة على أساس النظريات الأجنبية غير الإسلامية من القومية والوطنية ، وأرادوا أن يستمدوا القوة من الاشتراك في الماء والهواء وبعض الأغراض المادية التي هي الأصل عند الكفار ، والمشركين الذين لا يعيشون إلا لها . أما المسلم ، فإنما يعيش بها لتحقيق المبادئ السامية والقدور العالية والأخلاق الفاضلة ومقاييس الصواب والخطأ والحلال والحرام التي هي المقومات الجوهرية لكل حلف دائم ليتبع ولاء صادقاً ، والتأمين على النفس وطغيان طائفة على أخرى ، ولكن أتى على المسلمين زمن سولت لهم أنفسهم فيه أن يتجاهلوا ويتبرءوا من كل ما يمت من فكرة دينية ، حتى ولو كان من المبادئ المقررة والحقائق التاريخية الثابتة لكي يتسنى لهم الحصول على لقب « المستنيرين » من عدوهم الذي يبهرهم بقوته وشوكته .

قد قبل المسلمون ذلك وظنوا ولا يزال كثير منهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، ولذلك استبشرت بخير كثير حينما قرأت مقال الأستاذ محمود محمد شاكر يحدثنا فيه عن العلاقات بين المسلمين واليهود عسى أن تسفر محنة فلسطين عن نعمة عظمى ، ألا وهي الانقلاب في الفكر السياسي عند العرب بحيث يتأكدون أن التسامح لا يقام له أي وزن إلا إذا جاء من قوى يقظ شديد المراس مستكمل العدة ، مستقل بنفسه ، قادر على قلب ظاهر المجن

عند ظهور أول بوادر الشر ، ولن يتأتى للمسلمين مثل هذه القوة إلا إذا كانت حياتهم منسقة على أسس دينية بحتة ، وما من شك فى أن كل من يتأمل هذه الحقيقة لابد أن تختلج بين يديه الحركات والنظمات السياسية الحالية للعرب بأسرها بما فيها الجامعة العربية

وبمناسبة ذكر الجامعة العربية أقول : أو ليس من العجب أن يتنكب ويتنصل المؤتمر الثقافى العربى من عرض الإسلام كعامل لم يزل ولا يزال ، على الرغم من أهواء المستنيرين والمتقدمين ، يلعب دوراً هاماً فى حياة معظم أفراد الشعب العربى طيلة القرون الثالثة عشرة الماضية ؟

ومما يزيدنى عجباً أن أصحاب المؤتمر اجترأوا على ارتكاب مثل هذا الخطأ الذى فى حين قد بدأ مفكرو الغرب يعترفون علناً بأثر الدين فى تكوين النفسية وتزكية العقل وتوجيه العواطف التى هى مبدأ جميع الأعمال الإنسانية . أفلا يستحق الدين أن يلقى عناية من الباحثين العرب ولو من الناحية الفنية ! ولو فرض جدلا أنه يحق للزعماء أن يتناسوا الدين لأغراض سياسية فى الحال الحاضر فليت شعرى من أين استمدوا سلطتهم على الماضى حتى يقترحوا تنشئة الجيل الجديد على ذكرى أمجاد العرب بدون أن ينوا الإسلام حقه ؟ ما أجدرهم أن يدركوا أن التعصب للوطن أو الجنس (وقد بكى شعراء العرب قديماً ضياع الأنساب واختلاط الأحساب) ربما يكون أشنع وأضر بالإنسانية من التعصب الدينى ! فهل يحتاج أحد إلى التذكير بأن العرب لم يشيدوا ما شادوا من صروح المجد ، لأنهم كانوا ينطقون اللغة العربية (وحاشا لله أن أنكر لتلك اللغة ، لغة الإسلام — وقاها الله شر المهجات — فضلها) أو لأنهم تأثروا بالفكر الرومانى أو تحضروا بحضارة البحر المتوسط ؟ إنما شادوا ما شادوا وبنوا ما بنوا لأنهم كانوا مسلمين قبل ومسلمين بعد ، ولن يأتوا بمثل ذلك أبداً إلا إذا أخلصوا للإسلام وجهروا به لا فى العبادة فحسب ، بل وفى تنظيم حياتهم الاجتماعية والسياسية ، وتنسيق شؤونهم المادية والاقتصادية جميعاً .

أما الخطة التى بسطها أخيراً نبيه أمين فارس فى كتابه « العرب الأحياء » — وهى مع الأسف الخطة التى تسير عليها الحياة السياسية فى الممالك العربية — فهى أخطر على الإسلام والمسلمين من شبح الشيوعية التى لا يتوانى ولاة الأمر فى مكافحتها باستغلال العاطفة الدينية بدون أن يصرفوا همهم إلى تنفيذ مبادئ الإسلام الاقتصادية مثل فرض الزكاة وما إلى ذلك .

نعم ، إن الخطة التى دعا إليها نبيه أمين فارس ، والتى تهدف إلى جعل محمد صلى الله عليه وسلم بطلا من أبطال القومية (معاذ الله من ذلك) — وبالفعل وصف محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة فى الرسالة التى تفضل بها أحد رؤساء العرب بمناسبة عيد الميلاد — ليست إلا ستراً لضعف المسلمين ، ومكيدة لحل توائم ، وضربة قاضية على كيانهم ، إن محمداً لم يجمع كلمة العرب فحسب ، بل جمع كلمة العرب والعجم جميعاً ، ثم كيف يفوت أحداً أن يتساءل : على أى شىء جمع كلمتهم ؟ العروبة أو الإسلام ؟ أقسم بالله أنى لم أتألم من قراءة أى كتاب حتى ما كتبه المستشرقون من الطعن فى الإسلام بقدر ما تألمت من قراءة هذا الكتيب الذى أعده أحق بالمصادرة من جميع ما تصدر الأحكام بمصادرته من يوم إلى يوم ، ولكن ماذا نصنع إذا تخلى الأزهر الشريف عن وظيفته فصار يسير فى موكب الساسة وولاة الأمور دون أن يسمو إلى توجيههم وإرشادهم لوجه الله ، فهو يصدر الفتوى ضد الشيوعية وضد بيع الأراضى ليهود فلسطين ليساعد الحكومة فى بعض أعمالها ويسكت عن أشياء ليتجنب معارضة الساسة ومعرقلة الحكومات (حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء) ، وليس هذا شأن أهم وأقدم مؤسسة للعلوم والثقافة الإسلامية التى لا تصور فصل الدين عن الدنيا بأى حال من الأحوال . أفلا يجدر بالأزهر والمنتسبين إليه أن يترفعوا عن الحزبية والإقليمية اللتين ربما سببتا إقفال أبوابه ، ثم يشنوا حملة شعواء على ما يجدونه فى الشوارع والأندية والملاهى من المناظر والمظاهر والتقاليد غير الإسلامية فى حياة الأمة بأسرها بما فيها السياسة والحكومة والآداب الاجتماعية والأخلاق الفردية ؟ !

(البقية فى العدد القادم)

السيد محمد يوسف الهمدى